ثالثاً: التوجه السياقي عند برنسلاف مالينوفسكي

رهن (B. Malinowski) حياته الأكاديمية لسكان جزر التروبرياند من بداية إقامته الميدانية في عام (١٩١٤م) الى وفاته في بداية العقد الرابع من القرن الماضي، وأصبح مهتما جدا باللغويات – عندما وجد أنه لا يستطيع أن يدرك مشروعه في كتابة قواعد كيليفيلا (Kilivila) اي اللغة التي يتحدث بها سكان التروبرياند التي تنتمي الى عائلة اللغات الاسترونيزية، لأنه لم يكن لديه تدريب لغوي، ولأنه كان على حق – مقتنعًا – بأن الفئات النحوية التي توفرها النظريات اللغوية له آنذاك لم تكن مناسبة لوصف هذه اللغة. فإذا تعامل المرء مع لغة جديدة، وعليه تدوينها، مع وجهات نظر وتعريفات نحوية ثابتة وجامدة، فمن السهل تمزيق أوصال التجميع الطبيعي للحقائق وضغطها في مخطط مصطنع. وعندما يتعامل المرء مع تلك المبادئ التصنيفية الموجودة في لغة كيريوينا (Kiriwina) وهي جزيرة في غينيا الجديدة، فانه يمكن له دراسة القواعد النحوية فقط بالتزامن مع المعنى، والمعنى فقط في سياق الحالة.

بشكل عام، تركزت اهتماماته اللغوية على اللغة بوصفها نمطاً للسلوك وعلى مشكلات المعنى الثقافي الذي ينص صراحة على أن الوظيفة الرئيسة للغة ليست للتعبير عن الفكر وليس التكرار للعمليات الذهنية، وانما تلعب دوراً فعالاً في السلوك البشري، لكن هذا لا يعني أنه ينكر أن اللغة هي أداة تفكير وتواصل للفكر (Metraux 1968: p524).

وعلى العكس من ذلك، يقول: تتلقى الحالات الذهنية (العقلية) لأعضاء مجتمع معين طابعًا معينًا الذي يصبح أُنموذجا نمطيًا من خلال النظم التي يشترك فيها أعضاء ذلك المجتمع، من خلال التقاليد والفولكلور، ومن خلال وسيلة التفكير ذاتها، وهذا يكون من خلال اللغة. يبدو من هذا التصريح أنه يتوقع أفكار (Sapir) و (Whorf)فيما يرتبط بمبدأ النسبية اللغوية – ويصر على أنه عند البحث، فإنَ دراسة الجانب اللغوي لا غنى عنه، ولا سيما إذا أردنا فهم العوامل النفسية–الاجتماعية للقبيلة، أي طريقة

تفكيرهم، بقدر ما هي مشروطة بسمات ثقافتهم، ولكن بالنسبة له، لا يمثل هذا الاستعمال للوظيفة الرئيسية ، وانما وظائف علمية متطورة للغة